مكونات الطبيعة الإنسانية وتأصيلها في الفكر الإسلامي

الدكتور/ عمر بن بوذينة

الدكتور/ مُحَمَّد راشد المري

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة قطر

المستخلص

يمثل الإنسان وحدة متكاملة الجوانب فسيولوجيًّا ونفسيًّا، وهي الجوانب التي تتصل بمقومات الطبيعة الإنسانية، والإنسان ككائن يمتلك أنماطًا من القدرة على التكيف وفق مجموع المؤهلات التي يمتلكها في أصل خلقته، تلك المؤهلات التي تتفاوت بحسب تكوين الطبيعة البشرية التي تتشكل عبر الإرادة والغريزة والطاقة؛ وما يتعلق بها من القلب والضمير،وفهم الطبيعة الكلية للإنسان يمكننا من تصور الأنماط الحضارية التي نبنيها انطلاقًا من تعريف الإنسان وطبيعة خلقته وعملياته العقلية التي تتجسد في تصرفاته. هذا البحث يستعرض –بمنهج تحليلي وصفي– مفهوم الإنسان والقوى الإنسانية، كما يقف على ماهية الإنسان إزاء وظيفته الكونية في الفكر الإسلامي، كما عبرت عنها النصوص الإسلامية، ويتطرق إلى مسألة الثنائيات في الطبيعة الإنسانية، في تتبع لأبعاد الوجود الإنساني. وبعض البنيات المشكّلة للإنسان بصفة عامة، حتى نبني تصورًا متكاملًا عن مفهوم ومكانة الإنسان في الإسلام، تمهيدًا لضبط أهداف وجوده وطبيعة وظائفه النهائية، وقد توصل البحث إلى نتائج من أهمها أن تناول الإسلام للطبيعة الإنسانية في تكوينها، هو تناول شامل لكل جوانب هذه الطبيعة محيطًا بخفاياها وتناقضاتها، وفلسفة الإنسان في الإسلام قائمة على أنه موجود وفق بعدين (مادي ومعنوي)، تبعًا لذلك وجب أن يكون له دين وفق بعدين (مثالي وواقعي) حتى يتمكن من تغذية كلا البعدين المتضادين: تغذية المجتمع الإنساني وروح الإنسان، وحتى يتمكن من العيش بسعادةٍ بشكل متوازن.

الكلمات المفتاحية: الطبيعة الإنسانية، الوجود، الوظيفة، الغاية، التصور الإسلامي.

Abstract

A human being is bestowed with a full-fledged unity of physiological, psychological aspects. A human being has different abilities to adapt and cohabitate according to the range of their innate qualifications, which vary in accordance with the human nature's composition, shaped by their will, intuition and energy, and their relation with the heart and consciousness. The understanding of human nature allowed us to envision the patterns of civilization established based on the definition of human, his creation nature and his mental processes reflected in their behaviors. This work investigates the concept of humankind and human strength through a descriptive and analytical methodology. Moreover, it deals with the identity of humans in relation to their ultimate role in the Islamic reflection as expressed in Islamic texts and dualism matters in human nature following the extent of human existence, and human structure in general, to make an integrated conception of Humankind concept and his status in Islam in order to pave the way to appoint the objectives of his existence and the nature of his final roles. Among the results of the study is that Islam's approach to human nature in its composition is a comprehensive approach to all aspects of this nature, surrounding its secrets and contradictions. The philosophy of man in Islam is based on the fact that he exists according to two dimensions: material and moral. And accordingly he must have a religion according to two dimensions: ideal and realistic, in order to be able to nourish both opposing dimensions, nourish the human community and the human spirit, and so that he can live happily in a balanced way.

Keywords: Human nature, existence, function, purpose, Islamic thought

تمهـــيد:

الحمد لله خالق الأرواح والجسد، وفاتح الأغلاق والعقد، ومانح الأرزاق والعُدد، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد: فإن تاريخ الوجود يعبِّر عن تاريخ الإنسان نفسه، فلا يمكن تعقُّل الوجود بعيدًا عن الوعي بالإنسان وتاريخ وجوده وبنيته في هذا الوجود. والإنسان هو أكثر الكائنات الحية غموضًا في هذا الوجود، ووقوفنا على تعريف الإنسان وفهم أصل خلقته ومكونات طبيعته، هو عمل لا ينفصل عن الرؤية الحضارية. فالحضارة هي الوجه الآخر للإنسان: تشتمل على كل مقدرات الإنسان وأعماله؛ من الحصول على الغذاء، إلى أدواته الإنتاجية، إلى أفكاره وإبداعه الفني.

وإذا كان الإنسان كائنًا عضويًّا؛ فإن الحضارة هي الأخرى كائن عضوي تنبع من الواقع وتعيش عليه وتتغذى بالوراثة[1]. ومن ثم كان اختيارنا للموضوع الذي ارتأينا له عنوان: "مكونات الطبيعة الإنسانية وتأصيلها في الفكر الإسلامي" الذي قسمناه إلى ثلاثة مفاصل:

أولها: ماهية الإنسان؛ حيث عرفنا الإنسان من منظور الإسلام.

ثانيًا: الإنسان والطاقات الحيوية؛ حيث أوردنا مكونات الإرادة، والغريزة، والقلب ووظائفه.

ثالثًا: الثنائيات المتقابلة في الطبيعة الإنسانية ضمن التصور الإسلامي.

رابعًا: تأصيل الطبيعة الإنسانية في الإسلام.

(١)- رياض مُحَمَّد، **الإنسان (دراسة في النوع والحضارة)**، (بيروت: دار النهضة، ط٢، ١٩٧٤م) ص٥.

مقدمة:

وفيها بيانٌ لسبب اختيار موضوع الدراسة، وتحديد مشكلته، واستعراض أهميته وأهدافه، والدراسات السابقة فيه، والمنهج الذي اتبعته الدراسة.

سبب اختيار موضوع البحث:

لما كانت الرؤية الكونية التوحيدية الإسلامية متأسسة على ثلاثية ترابطية تتجلى في: الله، والكون، والإنسان؛ فإن البحث عن المفاهيم المشكِّلة لهذه الرؤية هو من صميم فعل التحضر، حيث نقف على العنصر الفاعل الذي يقوم عليه هذا الفعل؛ وهو الإنسان بما يمثله من خلق إلهي أولًا، وعنصر مبدع ثانيًا. ولا يمكن أيضًا أن نتحدث عن منظور حضاري إسلامي دون الوقوف على الماهية الأساسية للإنسان، ومعرفة نوازعه وأعطابه وعناصر قوته وضعفه.

إشكالية البحث:

تتجلى إشكالية البحث في صورة الإنسان ومكونات طبيعته في مباحث الفكر الإسلامي، وكيفيات تعبير النصوص الإسلامية عن تلك الطبيعة. وماهية الإنسان لا يمكن حصرها في جانب دون آخر؛ حيث إن الإحاطة بكل متعلقات الإنسان تستلزم التعمق في كل الصور الممكنة للنشاط الإنساني، ولن يتأتى ذلك دون مقاربة المجال الحيوي للذات البشرية بالتعبير النصي الإسلامي؛ في القرآن والسنة وتصورات المفكرين المسلمين.

أسئلة البحث:

تبحث الدراسة في سؤال رئيسي هو: كيف عبَّرت النصوص الإسلامية عن الطبيعة الإنسانية كما هي في الواقع المنظور؟

وأسئلة فرعية هي: ما هو الإنسان؟ وما مكونات طبيعته؟ وما موقعه في المرجعيات الإسلامية؟

أهداف الدراسة:

الهدف الرئيسي للدراسة هو فهم الطبيعة الإنسانية كما هي في التصور الإسلامي، وفهم متعلقاتها النظرية والتطبيقية، ويتفرع عن هذا الهدف أهداف فرعية:

- الوقوف على ماهية الإنسان كما هي في المرجعيات الإسلامية.
- تحليل المكونات البشرية في أطوارها الإيجابية والسلبية.
- التعرف على دور الطبيعة البشرية في الإبداع الإنساني من منظور إسلامي.
- تحديد أدوار الإنسان الحيوية في تشكيل الفعل الحضاري.

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية الدراسة في كونها تبحث موضوعًا متعلقًا بالعنصر الأساسي في فعل التحضر، وهو الإنسان، وتسليط الضوء على ضرورة تحليل العناصر المشكلة لهذا العنصر الذي يساهم بشكل فعالٍ في إنتاج خطاب حضاري يُعنى بالعودة إلى مكونات الإنسان في تشكيل أي نمط إصلاحي، وهو الأمر الذي يسهم في محاصرة التراجع الفكري الذي نشهده في دراسة متعلقات مسائل الحضارة. إضافة إلى أن تأصيل الطبيعة البشرية في الرؤية الإسلامية يعطي صورة واضحة للباحثين عن اهتمام المرجعية الإسلامية بالنوازع البشرية ومكونات الطبيعة البشرية، ويؤكد البعد الواقعي للرسالة الإسلامية.

مصطلحات البحث:

تعريف الطبيعة الإنسانية: مجموع المنازع البدنية والنفسية والغرائز المتصلة بالسلوك البشري، بما فيها الاستعدادات الفطرية والميول والرغبات والانفعالات المتصلة بسمات شخصية الإنسان ومؤثراتها الداخلية والخارجية.

تعريف التأصيل: إحالة القضية إلى أصل ثابت بعد التحقيق في كنهها، والتعمق في فهم متعلقاتها.

تعريف الفكر الإسلامي: يعرفه محسن عبد الحميد (١٩٩٦) بقوله: "كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله ﷺ إلى اليوم، في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان، والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني في تفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية؛ عقيدة وشريعة وسلوكًا"(١).

منهج البحث:

اتجهت الدراسة إلى المنهج الوصفي التحليلي الذي ارتأيناه لاستعراض الماهية والمكونات ومقاربة النصوص إلى المفهوم والمعنى، وكان تناولنا لمسائل البحث مبنيًّا على العرض والاكتشاف أولًا، ثم بواسطة التحليل نصل إلى تقرير المسائل، مستخدمين الآراء والنصوص الداعمة، في تدرج واضح.

الدراسات السابقة:

– دراسة أبو زيد العجمي (١٩٨٣)، بعنوان: **"حقيقية الإنسان بين القرآن وتصور العلوم"**، حاولت الدراسة أن تعطي تعريفًا للطبيعة البشرية من منظور القرآن الكريم وتصورات العلوم الإنسانية المختلفة، حيث استعرضت تعريفات بعض علماء الإسلام وتعبيراتهم عن مسئولية الإنسان وطبيعة مهامه من زاوية شرعية، كما استعرضت مقولات علم النفس التجريبي، واتخذت المنهج المقارن في بعض أجزائها في تتبع حقيقة الإنسان بأبعادها المختلفة. وقد توصلت الدراسة إلى أن تكريم الإنسان مقدَّم على مسئوليته، وأن المسئولية العامة تكمن في حفظ الدين.

– دراسة مصطفى عشوي (١٩٩٦)، بعنوان: **"تصور الطبيعة البشرية من منظور نفسي مقارن"**، واستعرضت الدراسة سيكولوجية الشخصية البشرية بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي، وهدفت الدراسة إلى توضيح الأسس النظرية التي ينبغي أن تقوم عليها عملية فهم

(١)– عبد الحميد، محسن، **تجديد الفكر الإسلامي**، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٦) ص٤١.

الطبيعة البشرية من منظور إسلامي؛ بحيث تشكل هذه الدراسة قاعدة للدراسات النفسية – وخاصة لعلم نفس الشخصية من منظور إسلامي– من خلال محاولة فهم الطبيعة البشرية كما جاء ذلك في القرآن والسنة، المعتمدة على الوصف الواقعي للإنسان منذ نشأته الأولى إلى يوم الدين، إضافة إلى محاولة الدراسة اعتماد منهج مقارن بين المنظور الإسلامي والمنظور الغربي للطبيعة البشرية.

وأشارت الدراسة في التوصيات إلى أن تصور الطبيعة البشرية من الناحية النفسية لا يمكن فصله عن تصور هذه الطبيعة دينيًّا وفلسفيًّا وأخلاقيًّا، إلا فصلًا منهجيًّا بهدف التخصص، كما أوصت الدراسة بأن جهود "أسلمة" علم النفس ينبغي أن تبدأ بوضع الأسس النظرية لتصور الطبيعة البشرية من الناحية النفسية من جهة، وتحديد موضوع علم النفس ومناهجه من جهة أخرى.

– دراسة سهاد عبد الله وعاطف حسن (٢٠٠٨)، بعنوان "**طبيعة النفس البشرية في مرحلة التكليف في ضوء القرآن الكريم**": اتجهت الدراسة إلى تتبع مفهوم النفس في القرآن، والوقوف على المكونات الغريزية فيها، والربط بينها وبين المبدأ التكليفي في القرآن الكريم عبر استقراء آياته، وقد اعتمدت الدراسة المنهج الاستقصائي في تتبع المبادئ النفسية في أغلب المحتوى القرآني، كما اعتمدت منهج تحليل المحتوى.

وقد توصلت الدراسة إلى أن التعبير القرآني وصف النفس ككتلة متكاملة بثنائية ضدية بين الخير والشر، ميالة إلى الشهوة كمبدأ تكويني في طبيعتها، وكان من نتائجها وتوصياتها التأكيد على أهمية دراسة موضوع النفس البشرية من منظور إسلامي، وهو المنظور الذي يمكن اعتماده في توجيه البرامج التربوية.

– دراسة حسن بدران (٢٠١٣)، "**الإنسان من خلال الطبيعة والشخص والفطرة**"، اتخذت دراسته في معظم مناحيها طابع المقارنة بين الأنساق الفلسفية والدينية والكلامية في موضوع الإنسان، والوقوف عند الجسد كما عبرت عنه الفلسفة الحديثة، وسعت الدراسة في أجزاء أخرى إلى استعراض حقيقة الإنسان في حقل علم النفس

كالشخصية وأنماطها ومدارسها كالنظرية السلوكية وغيرها، والمقارنة بين الإنسان والشخص والإنسان والهوية، وكان حقل المنهج المقارن في الدراسة واسعًا، وقد جاء استعراض التصور الديني للإنسان في مفهوم الفطرة ومعرفة الإنسان الفطرية لأصالة التعبد في آخر الدراسة.

وقد توصلت الدراسة إلى أن الله أودع في الإنسان قوة يتم التعبير عنها بقولنا: "الإنسان مفطور". وهذا المقدار لا يكفي في إلقاء الضوء على طبيعته الأصلية، والأمر يتوقف الأمر على توضيح مسار تلك القوة التي اختصها الله تعالى به، وهي توصية للدراسة.

التعليق على الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع على الدراسات السابقة التي اعتمدت المنهج المقارن كدراسة عشوي (١٩٩٦)، ودراسة العجمي (١٩٨٣)، ودراسة بدران (٢٠١٣)، ومنهج تحليل المحتوى، والمنهج الاستقصائي في دراسة سهاد وعاطف (٢٠٠٨)؛ أعطت تلك الدراسات للطبيعة البشرية بُعدًا سيكولوجيًّا في تركيزها على الإطار النفسي للإنسان، كما كانت معالجة الظاهرة الإنسانية من زاوية مقاربتها للنظريات النفسية، والنظريات التربوية.

وقد أشارت تلك الدراسات في توصياتها إلى أهمية تسليط الضوء على الطبيعة البشرية كخلق إلهي له خصائصه ومميزاته. من هنا جاءت دراستنا لاستدراك الجوانب التحليلية التي تتصل بماهية الإنسان في جوانبه المتعددة من غير إهمال لأحدها، لما لتلك المكونات من علاقات وظيفية، ومحاولة فهم الإطار المرجعي الذي تستند إليه صورة الإنسان في الفكر الإسلامي بدءًا بالقرآن والسنة، وتوصيفات المفكرين، تمهيدًا لوضع مقاربة تربوية تُعنى بجميع أجزاء الطبيعة البشرية.

وقد انفردت هذه الدراسة عن سابقاتها بتحديد ماهية الإنسان أولًا، ثم تحليل الطاقات الحيوية فيه، ثم بحث الثنائيات المتقابلة في الطبيعة البشرية، وصولًا إلى تأصيل ذلك كله في التصور الإسلامي.

حدود البحث:

اقتصرت الدراسة على بحث ماهية الإنسان، ومكونات الطبيعة الإنسانية، وعلى تأصيل تلك المكونات في مرجعيات الفكر الإسلامي.

أدوات البحث: الكتب والدراسات المتعلقة بموضوع البحث.

تقسيمات البحث:

١- ماهية الإنسان؛ حيث عرفنا الإنسان من منظور الإسلام.

٢- الإنسان والطاقات الحيوية: الإرادة الإنسانية، الغريزة البشرية، القلب ووظائفه الإيجابية.

٣- الثنائيات المتقابلة في الطبيعة الإنسانية ضمن التصور الإسلامي.

٤- تأصيل الطبيعة الإنسانية في الإسلام.

١- ماهية الإنسان:

أصل اللفظ "إنسان" هو من النسيان، وروي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: «إنما سمي الإنسان إنسانًا؛ لأنه عهد إليه فنسي»، وهو يدل على آدم عليه السلام[(١)]. وقد جاء اللفظ في القرآن تارة بمعنى آدم وتارة أخرى بمعنى الجنس البشري، كما يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، "والإنسان موجود صدر عن الله كما صدرت كل الموجودات، يتركب من جسد جسماني، وروح روحاني، صدر بـ"الفيض الأقدس"[(٢)].

وترى العرفانية الصوفية أنه إذا كان الإنسان مركبًا من روح ونفس وجسد، وأن كل جانب من جوانب وجوده المفترضة يختص بمهمة وجودية معينة حسب الظاهر؛ حيث تختص الروح بإدراك الصور الحسية، فإن هذا في نظرهم لا يعني أن الجسم مكون من أجزاء مستقلة منفصلة بعضها عن بعض، بل إنه يكون وحدة متصلة الأطراف يخدم كل جانب فيها

(١)- ابن منظور، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، د. ط، د. ت)، مادة أنس، ج١، ص١٤٧.

(٢)- ابن سبعين، **بُد العارف**، ص٣٠٠، نقلًا عن: الإدريسي محمد العدلوني ، **معجم مصطلحات التصوف الفلسفي (مصطلحات التصوف كما تداولها خاصة المتأخرين من صوفية الغرب الإسلامي)**، (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط١، ٢٠٠٢م)، ص٣٤.

الجوانب الأخرى ويصحح لها، وهكذا فكل ما يصدر عن الذات الإنسانية فهو يصدر بشكل متصل في وحدة دون إثنينية أو تعدد(١).

وقد ذكر "طه عبد الرحمن" توصيفًا لبنية الإنسان وتراوحها بين الجسمية والروحية، وأطلق على مذهب مادية الإنسان اسم "مسلمة قصور الوجود الإنساني" أو "الإنسان الأفقي" وما تعنيه: "حياة الإنسان مقصورة على العالم المرئي وحده" في مقابل: "الإنسان المتعدي" أو الإنسان العمودي الذي يتسع وجوده لأكثر من عالم واحد(٢).

ثم يستفيض في شرح الملابسات الجسمية في الإنسان، يقول: "إن القول بأن الإنسان قاصر –أو أفقي– يفترض أنه مردود بكليته إلى "الجسمية"، فما دام العالم المرئي متحيزًا مكانًا وزمانًا، فإن اقتصار الإنسان عليه، وجودًا وسلوكًا يجعله واحدًا من أجزائه الخارجية، بحيث لا يستطيع مطلقًا الانفكاك عن هذا التحيز، فيلزم أنه حيثما يحيا الإنسان فإنه لا يحيا إلا في صورة جسم ممتد ... وإذا زادت جسمية الشيء درجة زاد اقتران وجوده بهذا العالم على قدرها، حتى إذا ارتقت هذه الجسمية إلى أقصى درجاتها بلغ اقتران هذا الوجود بالعالم المرئي ذروته، وهذا يفيد أنه في حالة تزايد الجسمية تأخذ حظوظ الانفكاك عن العالم المرئي في التدني حتى تضمحل بالكلية، والعكس بالعكس..."(٣).

والإنسان هو روح العالم وعلته وسببه وأفلاك مقاماته وحركاته وتفصيل طبقاته، ويطلق على الإنسان كذلك العالم الأصغر مقابل العالم الأكبر؛ لأنه ليس سوى ترجمة ومثالًا لوجود

(١)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢)– عبد الرحمن طه، **روح الدين (من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية)**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠١٣)، ص٣١.

(٣)– طه عبد الرحمن، **روح الدين**، ص٣٢.

العالم[١]، وهو مخلوق ذو رسالة هي الاستخلاف، حيث استخلف الله الإنسان في الأرض وسخر له ما فيها، وزوده بالمواهب التي تعينه على الخلافة وتيسر له طيبات الحياة كلها[٢].

وأولى خواص الإنسان الفذة قدرته على التفكير التصويري، مما هيأ للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية، وهي خاصية أخرى من خصائص الإنسان، وقد أدت النتائج السيكولوجية إلى أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما يظن عادة، وأدى هذا إلى أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لا بد أن يتعرض للصراع النفسي، ومن خصائص الإنسان التغلب على شدة الغريزة.

وجسمية الحجر غير جسمية الشجر متى وضعنا في الاعتبار جمود الأول وحياة الثاني، وجسمية الشجر غير جسمية الحيوان متى نظرنا إلى لزوم الأول لمكان واحد وقدرة الثاني على الحركة في المكان، وجسمية الحيوان غير جسمية الإنسان متى راعينا لزوم الأول لزمن الحاضر، وقدرة الثاني على الخروج إلى زمن الماضي وزمن المستقبل[٣].

والخواص التي امتاز بها الإنسان، والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية تنشأ من خاصة أو أكثر من الخواص الثلاثة التالية[٤]:

الأولى: قدرته على التفكير الخاص والعام.

الثانية: التوحيد النسبي لعملياته العقلية؛ بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

الثالثة: وجود الوحدات الاجتماعية مثل: القبيلة والأمة والحزب، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها، وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل به، وبذلك يكون الإنسان فريدًا في أحواله.

---

(١)- الإدريسي محمد العدلوني، **معجم مصطلحات التصوف الفلسفي**، ص٣٤.

(٢)- عبد الرحمن طه، **روح الدين**، ص٣٢.

(٣)- المرجع نفسه، ص٣٢.

(٤)- جوليان هكسلي، **الإنسان في العالم الحديث**، تر: حسن خطاب، ص٣٦، نقلًا عن: محمد قطب، **دراسات في النفس الإنسانية**، (القاهرة: دار الشروق، ط٥، ١٩٨١)، ص: ٨٣، ٨٤.

فالإنسان –وفق هذا– يحدوه توصيفان: توصيف مادي يرى الإنسان أقرب إلى العمليات الميكانيكية التي تجعل وجوده مقتصرًا على الجوانب البيولوجية المتصلة بتسيير حياته وفق نمط أفقي، تكون فيها الجسمية أقرب إلى حقيقته، وتوصيف مثالي يرى في أنه لوجود الإنسان غاية متضامنة مع أصل خلقته، وهي الصورة الأقرب في النظر الإسلامي الذي يرى أنَّ الإنسان مكلف في هذا الكون لغاية سامية، وكل ما في الكون مسخر لهذه الغاية. وتتمثل المغايرة بين النظرتين "المادية والإسلامية" للإنسان في الأمور الآتية:

١- في منزلة الإنسان في الكون.

٢- وفي طبيعته التي فطر عليها.

٣- وفي غايته ووظيفته في هذه الحياة.

وفي الرؤية الإسلامية تظهر قصة خلق الإنسان في آيات كثيرة تتحدث عن ما جُبل عليه وطبيعته ونقطة بدئه؛ يقول سيد قطب: فإرادة الله أن يخلق إنسانًا من أصل الحياة كلها من طين هذه الأرض، ومن عناصره الرئيسة التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين، ثم كانت النفخة العلوية التي ميزت بينه وبين سائر الأحياء، ومنحته خصائص الإنسانية التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية، فسلك طريقًا غير طريقها منذ الابتداء، بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه(١).

والآيات القرآنية تبرز أصل الإنسان وبداية خلقه، وأنه خلق في تعب، وفي عداوة مع الشيطان، وأنه لا يخفى على الخالق من الإنسان شيء، وأن الإنسان مرهون بعمله في هذه الحياة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ

(١)- قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ط٧، ١٤١٢هـ)، مج٤، ص: ٢١٣٨، ٢١٣٩.

وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧- ٩] وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥- ٧] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣].

ومن هذه الآيات يمكن اعتبار الإنسان بأنه خلق ليكون خليفة في الأرض، فهو سيدها ومن أجله خلق الله كل شيء في هذا الكون مسخرًا له، وأنه جمع من القوى بين الطين والنفخة الإلهية، وأن الخير سابق في تكوين الإنسان والشر عارض عليه.

ومن إدراكنا لماهية الإنسان ومعرفة أصله وبدء خلقته يمكننا الكشف عن مكنون الطبيعة الإنسانية، وقبل أن نتناول بالتحليل للطبيعة الإنسانية نعرج على القوى الإنسانية والارتقاء الإنساني في سياق تعريفنا بالإنسان.

٢- الطبيعة الإنسانية والطاقات الحيوية:

إنَّ طبيعة الشيء تعني ماهيته، وهي سر نموه وتغيره وحركته وما به من صفات يطبع عليها، ومن أهم مقومات هذه الفطرة هي الطاقة الحيوية؛ أي: الإرادة ومجموعة الغرائز والحاجات العضوية، والغرائز ثلاثة: غريزة حب البقاء، وغريزة حفظ النوع، وغريزة التدين أو حب التقديس.

أما الحاجات العضوية فهي عديدة ومتنوعة مثل حاجة الإنسان إلى الأكل والشرب وما يتصل بهما، وحاجته إلى النوم، وحاجته إلى الراحة، وحاجته إلى الكلام وغيرها...

أ)- الإرادة الإنسانية:

الإرادة: هي قوة الرغبة والاختيار التي توجه الإنسان نحو قصد معين، وهي قوة باعثة يتولد منها الميل إلى الشيء أو النفور منه، والإرادة هي الوظيفة الثانية من وظائف القلب، فحين يفرغ القلب من الوظيفة الأولى -أي عقل الأفكار والأشياء والمواقف والظواهر التي تجسد المثل الأعلى ثم تحليلها وتقويمها- يأتي دور الوظيفة الثانية وهي تقبل هذه الأفكار

والظواهر أو رفضها كليًّا أو جزئيًّا[١]. وتتجسد الإرادة في السلوك الظاهري من خلال قوتين اثنتين: قوة الغضب وقوة الشهوة، وتتخذ هاتان القوتان ثلاث حالات:

الحالة الأولى: غضب يتحرك إلى المدى الذي يدفع العدوان عن النوع البشري، وشهوة تتحرك إلى المدى الذي يحافظ على استمرار بقاء النوع البشري.

والحالة الثانية: غضب ضعيف لا ينمو إلى الحد الذي يدفع العدوان عن النوع البشري، وشهوة ضعيفة لا تتحرك إلى المدى الذي يحقق الاستمرار للأفراد والجماعات.

والحالة الثالثة: غضب مفرط طاغي يتحرك إلى درجة العدوان على الأفراد والجماعات، وشهوة مفرطة طاغية تتحرك إلى الدرجة التي تهدد بقاء الأفراد والجماعات[٢].

ولدى التدبر في السلوك الإرادي للإنسان نلاحظ أنه ينقسم إلى أنواع شتى[٣]: فمنه ما هو أثر من آثار خلق النفس محمود أو مذموم كالعطاء عن جود، والإمساك عن شح، والإقدام عن شجاعة، والفرار عن جبن، والإقبال عن طمع، والكف عن عفة، والاعتراف عن حب للحق، والإنكار عن كبر، وإفراط في الأنانية، والإغضاء عن حلم، والتحمل عن صبر وهكذا. ومنه ما هو استجابة لغريزة من غرائز الجسد أو النفس الفطرية ضمن حدود الحاجات الطبيعية لها: كالأكل المباح عن جوع، والشرب المباح عن ظمأ، ومعاشرة الزوجة عن طلب ذلك، والنوم عن حاجة إليه، والسعي في اكتساب الرزق تلبية لداعي الفطرة، والاستمتاع المباح بالجمال تلبية لطلب النفس بشيء من مباحات اللهو واللعب وأمثال ذلك.

(١)- الكيلاني، ماجد عرسان، **أهداف التربية الإسلامية، (في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية)**، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٩٩٧م)، ص١٣٧.

(٢)- الكيلاني، ماجد عرسان، **أهداف التربية الإسلامية**، ص١٣٨.

(٣)- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، (دمشق: دار القلم، ط٣، ١٩٩٢م)، ج١، ص: ١١- ١٣.

ومنه ما هو استجابة إرادية لترجيح فكري: كأن يرى الفكر مصلحة أو منفعة في سلوك ما، فتتوجه الإرادة لممارسته، أصاب الفكر في ذلك أو أخطأ كمعظم أعمال الناس اليومية في وجوه الكسب وغيره. ومنه ما هو من قبيل الآداب الشخصية أو الاجتماعية؛ كآداب الطعام والشراب واللباس والمشي والنظافة والنظام، والآداب المتعلقة بالأناقة وإصلاح مظاهر الجسد؛ كتنظيف الشعر وترجيله وتقليم الأظافر وغيرها، وإبداء كل حسن وجميل احترامًا لأذواق الناس، وتكريمًا لهم واسترضاء لمشاعرهم.

ومنه ما هو من قبيل العادات التي تتأصل في السلوك، وقد ترجع هذه العادات إلى موجه أخلاقي، أو موجه غريزي، أو موجه تكليفي، أو موجه اجتماعي ونحو ذلك. وقد لا تكون أكثر من ممارسات عبث استحكمت بالعادة.

ب)- الغريزة البشرية:

أمَّا الغريزة: فهي سلوك فطري، وتشمل تلك الأفعال المعقدة التي تحدث لأول مرة من غير خبرة سابقة بها، والتي ترمي إلى ما فيه مصلحة الفرد والاحتفاظ بجنسه، والتي هي ناشئة من تفاعل مؤثرات خارجية وباطنية، والتي هي مشتركة بين أفراد الجنس جميعهم، وقابلة للتغيير والتعديل بإرشاد الخبرة والتجارب[(١)].

والغريزة هي: استعداد فطري نفسي يحمل الكائن الحي على الانتباه إلى مثيرات معينة يدركها إدراكًا حسيًّا، ويشعر بانفعال خاص عند إدراكها، أو الشعور بدافع العمل في شكل سلوك معين تجاه هذا الشيء، ومظاهرها معرفي ونزوعي وانفعالي[(٢)]. وهي سلوك فطري متحجر غريزي مركبًا فينا منذ الولادة، وهي المحركات الأولى لأي نشاط حيوي؛ حركيًّا كان أم

(١)- قنديل، أمين مرسي، **أصول علم النفس**، (المطبعة المغربية، ط٢، ١٩٢٧)، ج٢، ص١٤٤.

(٢)- محمود، أميرة، **الغريزة ما لها وما عليها من منظور إسلامي**، (مصر: دار شتات للنشر، ٢٠١٤)، ص٤٣.

عقليًّا، فرديًّا كان أم جمعيًّا من قبل الكائن الحي، وللغريزة ثلاث جوانب: الإدراك والوجدان والنزوع[١].

وتعرف أيضًا بأنها: الطبيعة المقابلة للعقل، وقال أحدهم: إن الغريزة والعقل نمطان متوازيان من أنماط الفعل والمعرفة، وقد أدى التطور إلى تنوعها، وإلى اختصاص كل منهما بأنماط مختلفة معينة من الفعل، فالغريزة مختصة بوظائف الحياة؛ أعني: تكوين الآلات العضوية واستخدامها، وهي أساس الحدس، تعمل بلا تردد ولا تربية، أما العقل فهو مختص بالأشياء الصلبة، أعني صنع الآلات غير العضوية واستخدامها، وهو محتاج إلى التربية[٢].

والإنسان –مثل الحيوان– يرث بعض الغرائز الفطرية، بغض النظر عن مسميات هذه الغرائز، سواء سميناها ميولًا أو حاجات أو حوافز أو رغبات، أو وحدات عمل نفسي، وهذه الدوافع تصاحب بنشاط انفعالي معين يحرر السلوك ويوجهه وجهة معينة، ويظل السلوك موجهًا نحو هذا الغرض حتى يتغلب على هذا الموقف الخارجي الذي سبب حالة التوتر عند الكائن الحي، حتى يحقق التوازن بين الكائن الحي والبيئة الخارجية أو مجاله السلوكي.

وهناك خلط شائع بين الغرائز والحاجات العضوية، كما أن هناك خلطًا بين الغرائز والمظاهر التي تترجم بها، ولذلك اعتبر كثيرون أن الغرائز عديدة غير محصورة، مدعين أن هناك غريزة للتملك وغريزة للخوف وغريزة للجنس وغريزة للطمع ... إلخ، وهذا يعني أنهم لم يفرقوا بين الغرائز ومظاهرها؛ أي بين وجود طاقة حيوية في داخل الإنسان وبين مظاهر هذه الطاقة. فالطاقة الأصيلة في التكوين البشري هي الغريزة، وهي جزء من طبيعة الإنسان ولا يمكن إنكارها أو تجاوزها أو كبتها، وهي موجودة منذ تكوينه وخلقه، أما مظاهرها التي تتجلى بها فلا تؤلف جزءًا من ماهية الإنسان، ولذلك يمكن معالجة هذه المظاهر للغرائز أو محوها، كما يمكن كبتها وتحويلها.

(١)– الطويل، عزت عبد العظيم، **معالم علم النفس المعاصر**، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط٣، ١٩٩٩)، ص١٧١.

(٢) – صليبا، جميل، **المعجم الفلسفي**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٢٨)، ص١٢٨.

إن إشباع الطاقة الحيوية يتطلب تفكيرًا في العيش، طريقة في العيش تتساوق مع المعطيات النزوعية الداخلية، وهذا التفكير طبيعي وحتمي، ولذلك وجب أن يكون تفكير الإنسان في العيش مبنيًّا على تصوره للحياة حتى يتسامى فكره، ويبقى في كنف من الطمأنينة الدائمة. وكل معنى في الحياة يترتب على ما نعطيه من معاني للأشياء من حولنا؛ معنى للكرامة الإنسانية التي تتحدد بشكل أساسي في تهذيب الغرائز وتوجيهها في سياقاتها المتجانسة مع العيش الكريم، والعيش الكريم هو تلك الحياة التي يرتفع فيها الوجدان الإنساني عن مظاهر القلق والتوتر والإحباطات والخوف واليأس، ومحاولة بناء نسق مجموع من بوادر السعادة التي يتحقق فيها معنى الإنسان من حيث هو كائن إيجابي يتعايش مع أفراد مجموعه، وفق هدف مشترك قوامه الخيرية والإنسانية. ولكن هذا الارتقاء -وإنْ كان موجودًا في فطرة الإنسان- إلا أنه إذا ترك وحده دون أن يجعل له أساسًا يبنى عليه فإنه قد يحصر بنطاقه الفكري، ولا يتعداه إلى الغير، فتبقى الأنانية متحكمة في ذلك الفرد، ويظل الانحطاط بارزًا في تصرفاته، أو في أي مظهر من مظاهر حياته، ولا يتعدى ذلك إلى الرقي، ولا إلى الاطمئنان الدائم[1]، فالاطمئنان يتولد عبر وشائج الصلة بين الإنسان والإنسان، ليس في صراع يتمظهر في الحسد والغيرة والمقت، وإنما عبر تواصل مفيد في دائرة متصلة الأبعاد تستجيب لتطلعات كل المجموعة، انطلاقًا من تلبية حاجات كل فرد فيها في تشارك رحيم يطلق عليه التعايش. يقول "مقداد يالجن": "... وليست هناك وسيلة لضمان سير الإنسان على النهج الذي رسمه الإسلام للإنسان في هذه الحياة، ولوضع زمام تلك الميول والدوافع في يد الإرادة الحكيمة البصيرة، إلا تلك التربية التي تستطيع أن تجعل الإنسان صاحب إرادة

(١)- الزين، سميح عاطف، **علم النفس (معرفة النفس الإنسانية)**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤١١هـ، ١٩٩١م)، مج١، ص١٥٧.

قوية وعزيمة عظيمة، وتحرره من أن يكون عبدًا لشهواته وأسيرًا لأطماعه ودوافعه، كما تستطيع تلك التربية أن تجعل الإنسان يسير نحو هدف أسمى وغاية عليا..."[١].

والإنسان ليس مجبرًا في أفعاله؛ لأن أفعاله مستندة إلى عقله وإرادته، وهو ليس أسير غرائزه كسائر الحيوانات، فهو محكوم بعقله لا بغرائزه، وهو أيضًا ليس مختارًا مطلقًا وحرًا بلا قيد، فهو في منزلة وسطى بين الاختيار المطلق والجبر ...

ج)- القلب والطاقة الإيجابية:

يطلق القلب عند الفلاسفة على معان متعددة؛ فيطلق ويراد به النفس أو الروح، أو على تلك اللطيفة الربانية التي لها بالقلب الجسماني تعلق، وهي حقيقة الإنسان التي يسميها الحكماء بالنفس الناطقة أو العقل؛ يقول "الجرجاني": القلب لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، ويسميها الحكيم النفس الناطقة والروح باطنة، والنفس الحيوانية المركبة، وهي المدرك والعالم من الإنسان والمطالب والمعاتب[٢].

ووظيفة القلب عند الفلاسفة إدراك الحقائق العقلية بطريقة الحدس والإلهام لا بطريق الاستدلال والقياس، يقول أبو حامد الغزالي: (إذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر وتكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية)[٣].

ولا يخفى أن مظاهر السلوك الإنساني تنحصر في القلوب والعقول والجوارح؛ فالقلوب قوة معنوية تتجلى في المشاعر والأحاسيس والعواطف، وللعقول توجيهات ومنازع، وللجوارح

(١)- ياجن، مقداد، **جوانب التربية الإسلامية الأساسية**، (الرياض: موسوعة التربية الإسلامية، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م)، ج١، ص٣٩.

(٢)- الجرجاني، علي بن مُحَمَّد بن علي الزين الشريف، **التعريفات**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م)، ص١٥٦.

(٣)- الغزالي، أحمد بن مُحَمَّد أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، تح: عبد الله الخالدي، (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م)، مج٣، ص١٨.

وظائف وأعمال، وهذه الثلاثة تستوعب كل ألوان النشاط للسلوك الإنساني، فالإنسان يتألف من شهوات أو غرائز وانفعالات وشعور، كما يتألف من بنية داخلية تراوح اسمها بين (القلب) و(الضمير) بحسب علماء الدين وعلماء النفس. هذا الضمير أو الوجدان أو (القلب) هو عماد الأخلاق يهدي إلى ما تشابه منها، ويرغب في خيرها، وينهى عن شرها[١].

وإذا كان القلب هو موضع الإيمان والنفاق، وموطن للنية والإخلاص وموطن للمحبة والبغض والكراهية، فهو مفطور كحاسة داخل الكيان البشري، بمعنى أنه له القدرة على التمييز، كما أنه قوة مكتسبة بمعنى أنه ثمرة للتربية والتهذيب، وهذان الادعاءان ليسا منفصلين تمامًا، كما أنهما ليسا متفقين تمامًا.

والقلب غريزة فطرية ولد الإنسان مزودًا بها مثل سائر الكائنات الحية الأخرى، وبها يستطيع التمييز بين الخير والشر، وهذا يعني أن القلب غير مكتسب من البيئة، ولا علاقة له بها، ومن أنصار هذا الرأي[٢] "جان جاك روسو" يقول: "إن الضمير غريزة فطرية ولد الإنسان مزودًا بها يحملها في نفسه منذ ولادته، وبها يعرف طريق الخير والشر، وهو ثقة لا يخطئ، وهو خير دائمًا، وهو الوسيلة للهداية الإنسانية".

و"إيمانويل كانت" يرى أن الضمير هاد موثوق به ومعصوم من الخطأ، وما عليك إذا أردت أن تسلك سلوكًا خيرًا إلا أن تستنصحه، فإنه يرشدك ويدلك إلى الواجب دون تشريع[٣].

ولو تأملنا الواقع الإنساني لاكتشفنا عدم صوابية الرأيين؛ لأننا نتعايش مع ضمائر وقلوب تختلف باختلاف الأشخاص، بل إنها تتمايز في الشخص الواحد بحسب الظروف

(١)- القرضاوي، يوسف، **الإيمان والحياة**، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط ١٩٧٧)، ص٢١٥.

(٢)- حسن حسين مبارك، **تأملات في فلسفة الأخلاق والتصوف**، (الرياض: مكتبة الرياض للطباعة، دط، ١٩٨٢)، ص١١١.

(٣)- نفس المرجع ونفس الصفحة.

والمواقف التي تصاحبه، ولو كان قوة فطرية وغريزة طبيعية لكان واحدًا في جميع الظروف والأحوال.

ولو تأملنا الأديان والشرائع السماوية وما تضمنته من نصوصٍ توجيهية؛ لعرفنا أن الضمائر تتربى وتحتاج إلى تغذيةٍ روحية متواصلة؛ لأن الإنسان لا يهتدي بفطرته مطلقًا. ونحن في هذا لا نلغي سلطة الضمير الفطرية، كما ألغاه أصحاب النظرة المادية الذين لا يعترفون بالفضائل الأخلاقية، ومنها النظرة النيتشوية التي ترى أن الأخلاق اختراع الضعفاء، وهي عملة يشترون بها السعادة. والضمير الإنساني غير معصوم في الإسلام، اعتبارًا بالفروق العقلية بين البشر، وكذلك في درجات الشعور التي تتفاقم عند البعض وتنتفي عند الآخرين، ولذلك نحى كثير من علماء المسلمين إلى تقسيم النفس إلى: النفس اللوامة، والنفس الأمَّارة، والنفس المطمئنة، والنفس المستنيرة. وأما كون الضمير الإنساني حاسة وغريزة فطرية، أو قوة مكتسبة فإن النظرة الإسلامية تتجلى في قول النبي ﷺ: «**البر ما اطمأنتْ إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حَاكَ في النفس وتردد في الصدر، وإنْ أفتاك الناسُ وأفتوك**»(١). فالضمير ليس قوة فطرية غريزية يولد بها الإنسان مكتملة؛ وإنما هو استعداد فطري يولد به الإنسان، ويتبلور هذا الاستعداد ويظهر أثره بالتربية والتهذيب.

يقول "سميح عاطف الزين": "... لا يجوز أن نترك العبادة للوجدان يقررها كما يتطلب، أو يؤديها الإنسان كما يتخيل، بل لا بد وأن يشترك العقل معه لتعيين ما تجب عبادته؛ لأن الوجدان عرضة للخطأ، وكثيرًا ما يدفع الإنسان لعبادة يجب تحطيمها، أو تقديس أشياء محتقرة، فإذا ترك الوجدان وحده يقرر ما يعبده الإنسان أدى إلى الضلال؛ ذلك أنَّ الوجدان أو الضمير إحساس غريزي أو شعور يتراءى أمام واقع محسوس فيتجاوب معه، أو تفكير يثير هذا الشعور، ولذلك لا يجوز أن يضرب الإنسان بناء على دافع الوجدان

(١)- **صحيح مسلم**، كتاب البر والصلة، حديث رقم ١٤.

وحده، بل لا بد من استعمال العقل وحده، ولا يجوز أن تكون عبادة إلا وفق ما يرشد إليه العقل ..."[1].

وكحوصلة موضوعية للغريزة بين القلب والعقل يمكن أن نقول: إنَّ الضمير يختلف عن العقل والفكر اختلافًا واضحًا، فالضمير يصدر أحكامه بطريقة مبهمة دون أن يكون الإنسان على وعي من الأسباب والعوامل والمقدمات التي أدت إلى هذه الأحكام، وكأن أحكام الضمير إلهام رباني، أما العقل فيصدر أحكامه بناء على دراسة الأسباب والعلل وبحث المقدمات، ومن ثم تكون الأحكام العقلية قائمة على مقدمات فكرية، وأدلة منطقية، ويتضح الفرق بين الضمير والعقل عندما يتعارضان في أحكامهما، فكثيرًا ما يصدر العقل حكمًا يشعر وفقه صاحبه شعورًا داخليًّا بعدم الاطمئنان إلى حكم العقل.

وتعتبر كل الانفعالات والعواطف دوافع للسلوك الإنساني تشترك مع الغرائز في تحديد سلوك النفس البشرية، فهي امتداد لها وجزء منها؛ إلا أن الانفعالات والعواطف تصطبغ بالصبغة الوجدانية التي يشعر بها الإنسان، والتي تدور حول اللذة والألم.

٣- الثنائيات المتقابلة في الطبيعة الإنسانية في الرؤية الإسلامية:

من عجائب التكوين البشري تلك الخطوط المتقابلة المتوازية، كل اثنين منها متجاوران في النفس البشرية، وهما في الوقت ذاته مختلفان في الاتجاه: (الخوف والرجاء، والحب والكره، الاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى الخيال، الطاقة الحسية والطاقة المعنوية، الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بما لا تدركه الحواس، حب الالتزام والميل للتطوع، الفردية والجماعية، السلبية والإيجابية، والخير والشر في النفس البشرية، الانحراف والشذوذ، المادية والروحية، كل هذه الخطوط متوازية ومتقابلة في طبيعة الكيان الإنساني. وهي -باختلافها ذلك وتقابلها- تؤدي مهمتها في ربط الكائن البشري بالحياة، وتوسع أفقه، وتعدد جوانبه، وتفسح مجال حياته،

(١)- الزين، سميح عاطف، **الإسلام وثقافة الإنسان**، ص: ٥٨، ٥٩.

فلا ينحصر في نطاقٍ واحدٍ، وبذلك يتحقق للإنسان كيان فريد في كل ما نعرف من مخلوقات الله، كيان يرجع في النهاية إلى النشأة الأولى قبضة الروح والطين(١).

والقرآن الكريم في تناوله للطبيعة الإنسانية يقر بأن الإنسان يتكون من مادةٍ وروح؛ فيقول تعالى﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٢٩].

والآيات هنا تشير إلى أن الإنسان مكون من جسم وروح، والخلق الآخر هو الروح التي ينفخها الله في الجسد، ويقول النبي صلى الله عليه وسلَّم: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد**»(٢). فالقرآن والحديث يجتمعان على أن الطبيعة الإنسانية تتألف من الجسد والروح، ولفظ الروح يقصد منه المظاهر غير المادية التي تشتمل على العقل والوجدان أو العقل والقلب.

ويمكن القول إن القرآن يقسم الطبيعة الإنسانية إلى قسمين: جسم وروح، أو مادة وغير مادة، والروح تشمل العقل؛ أي أن أجزاء الطبيعة الإنسانية ثلاثة: الجسم، العقل، القلب. أجزاء متكاملة في خدمة غرض الاستخلاف الإنساني، فالعقل معرفة وعلم وإدراك، والقلب رغبة وإرادة، والجسم قدرة وتنفيذ.

والجزء المادي أو الجسم في الإنسان هو ذلك القسم البيولوجي بما يحتوي من رغبات وغرائز وانفعالات و عواطف، وما ماثلها مما يؤكد الجانب المادي منه، فالكائن البشري

(١)- قطب، مُحَمَّد، **دراسات في النفس الإنسانية**، ص٣٢٧.

(٢)- رواه **البخاري ومسلم**، وأخرجه **الترمذي** (٢١٣٧)، **وأبو داود** (٤٧٠٨)، **وابن ماجة** (٧٦)، **وأحمد** (٤٠٩١).

مدفوع لأن يتنفس؛ لأن له طبيعة فيزيولوجية، ومن هذا المنطلق يأكل ويشرب ويتكاثر؛ إذ إن هذه الغرائز كلها تخضع للنواميس الطبيعية التي أودعها الله في طبيعته الإنسانية(١).

ومظاهر التكريم في التكوين المعنوي للإنسان أعظم منها في تكوينه المادي، إذ هو مشتمل على نفخة من روح الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٢٩] إنه نفخ مجهول الماهية، ولكن يدل على عنصر تكويني في الإنسان زائد على العنصر المادي هو عظيم القيمة رفيع الشأن. ومن متعلقات هذا العنصر ما ركب في الإنسان من قوة العقل التي بها يعلو في سلم الترقي الذاتي، والترقي في استثمار الكون بحيث يحقق لنفسه العزة فيه، ومن متعلقاته أيضًا النوازع الأخلاقية الفطرية، التي بها تعلو مشاعره وأحاسيسه لتحفظ عزة الآخرين وكرامتهم في التعامل معهم، وجملة هذا التكريم في تكوين الإنسان بعناصره المختلفة يلخصه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤](٢).

والقلب والعقل هما من مقتضيات التكوين المعنوي في الطبيعة الإنسانية، والاختلاف بينهما يقاس من ناحية إلى المادة، ويقاس من ناحية إلى المثل الأعلى وهو الله، أما الروح فهي أقربها إلى الحياة الأخرى وأخفاها عن المدارك الحسية. ومن معجزات القرآن أنه وضعها الوضع الصحيح من الفلسفة والعلم، وجعلها أعضل المعضلات التي يتساءل عنها الناس بغير استثناء، ويزيد في تقدير هذه المعجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الإنساني أن يخوض في المسألة الإلهية، وأن يصل إلى الإيمان بالله عن طريق البحث والاستدلال والنظر في آيات الخلق وعجائب الطبيعة، فالعقل يهتدي إلى وجود الله من النظر في وجود الأشياء، ولكنه لا يهتدي إلى حقيقة الروح من هذا الطريق(٣).

وأما العقل فهو القدرة المدركة في الإنسان، خلقها الله ليكون مسئولًا عن أعماله، "ولذا نجد آيات القرآن الكريم تفيد أن سبب الانحراف والضلال هو عدم العمل بمقتضى

(١)- إسماعيل سعيد، **ديمقراطية التربية الإسلامية**، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، دط،١٩٧٤) ص: ٨٧، ٨٨.

(٢)- النجار، عبد المجيد، **فقه التحضر**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٩) ص٨٩.

(٣)- العقاد، عباس محمود، **الفلسفة القرآنية**، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٤م)، ص١١٢.

العقل"[١]؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢]. وهذه القوة الشعورية أو القوة الفكرية التي تعطي الإنسان قوة التأمل والمراجعة والترجيح والحكم بين الأشياء، أو الطرق والوسائل العديدة التي سيواجهها الإنسان عند الحصول على مطلوبه[٢] وتدبير الدنيا، إنما يقوم على خيال يتذكر به الإنسان الماضي، وفكر يحذره من وقائع المستقبل، وعقل يمزج هذا بذاك، ويستخرج منهما قواعد الحياة ومناهج التدبير، فالخيال يتصور ولا مناص للإنسان من الانفلات عنه، والفكر يتنبأ ولا مفر للإنسان من التغاضي عنه، والعقل بينهما يقدر ويدبر، وليس من سبيل للتحرر منه، وكل هذه الأمور الثلاثة تظل مشحونة بما تفور به الدنيا من أسباب الخير والشر، واللذائذ والآلام[٣].

وما دام للإنسان قدرة على الترجيح والحكم على الأشياء فهو كائن مكلف، والتكليف يقتضي أن يكون الأصل في الإنسان الخير، أما الشر فهو عارض على طبيعته، وانحداره إلى الشر راجع إلى قابليته للاختيار، فهو ليس خيرًا مطلقًا، وليس شرًّا مطلقًا، والمسافة بينهما هي مسافة العمل التربوي.

ومن شروط التكليف حرية الإرادة، وحرية الإرادة لا تعني مجرد الرغبة والميل، ولا هي تغني عن التفكير والاتجاه إلى عمل ما، وإنما تكون الإرادة حين تنقل النية إلى عمل ما، ويستقر العزم عليه في تصميم مهما تكن العوائق[٤]. وقد وردت آيات عديدة تحيل إلى مفهوم الجبر والاختيار؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا

(١)- يالجن، مقداد، **الاتجاه الأخلاقي في الإسلام (دراسة مقارنة)**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٧٢) ص١٧٠.

(٢)- البهي، محمد، **الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٧٥) ص٣٣٩.

(٣)- البوطي، محمد سعيد رمضان، **الإنسان وعدالة الله في الأرض**، (دمشق: مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م) ص٢٨.

(٤)- عبد الرحمن، عائشة، **مقال في الإنسان**، (القاهرة: دار المعارف، دط، ١٩٦٩م) ص١٠٦.

نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ [الشورى: ٢٠]. يقول "مُحَمَّد سعيد البوطي": "... إن إرادة الله شاءت أن يكون الإنسان أعظم مظهر لألوهيته، وأبين لسان ناطق بسر الوجود كله، والشكل الذي شاءت حكمة الله أن يظهر فيه ذلك كله هو عمارة الكون عن طريق ممارسة العبودية الصادقة له ... ولا تتم إلا بأن يكون الإنسان عبدًا لله بالسلوك والاختيار، كما قد قضى عليه بالعبودية له بالخلق والاضطرار؛ أي بأن يعترف بحقيقة العبودية الكامنة في طبيعته البشرية، ثم ينسق ويلائم بين هذه الحقيقة الكامنة في ذاته ومختلف تصرفاته الإرادية والسلوكية في حياته ... ويظهر ذلك التنسيق والتلاؤم بقبول التكاليف الواردة إليه من الله تعالى؛ أي بقبول السير في طريق من الحياة فيها كلفة ومشقة، لا لشيءٍ إلا ابتغاء الحصول على مرضاة الله عز وجل، ولا يتم شيء من ذلك إلا بتكامل أسباب الأهلية في الإنسان من عقلٍ ورشدٍ وسلامة تفكير، بما يستتبعه ذلك كله من مخاوف وآمال ... ولما كانت مادة التكاليف مستمدة من الحياة وما فيها، فقد كان لا بدَّ إذا أن تكون الحياة مزيجًا من المسرات والمتاعب والآمال..."(١).

وجملة القول؛ إن الإنسان بملكة العقل والإرادة يتحرك في دائرة إرادته، ودائرة إرادته هي دائرة صغرى ضمن دائرة الإرادة الإلهية التي جعلته في مجال يعبر فيه عن منشئه الأصلي الذي يُعزى إلى العمارة والاستخلاف، وبذلك يصبح كائنًا فعالًا إيجابيًّا يجري وفق نواميس كونية مستمرة، عن قصدٍ وغايةٍ.

٤- تأصيل الطبيعة الإنسانية في الإسلام:

يتأسس مفهوم الكيان الإنساني في الإسلام وفي الرؤية الدينية بصفة عامة على مبدأ "وجود الله" المبدأ الممتد في الزمان والمكان، ويتصف بهذا المبدأ بأن ماهية الإنسان تقوم به. والدين يتحدث عن أصل الإنسان كفعل إلهي يطلق عليه اسم الخلق، وهذا الخلق عملية متميزة عن الحيوانات الأخرى لها طبيعتها وأطوارها الخاصة، ومن هذه العملية تشكلت مكانة

(١)- البوطي، مُحَمَّد سعيد رمضان، **الإنسان وعدالة الله في الأرض**، ص: ٣٢- ٣٤.

الإنسان وتحددت تنشئته وتربيته والتعامل معه[١]. فالتسوية الإلهية للإنسان ونفخ الروح فيه هي التي شرفت هذا المخلوق وجعلته كائنًا عظيمًا مكرمًا، وهذا التكريم يرجع إلى نفخ الروح فيه وما تبعه من عقل وفكر، لا إلى نسبة الأرضي المادي[٢]، وهذه النفخة من الروح منحت الإنسان خصائص عديدة وميزته عن غيره من المخلوقات بميزات كثيرة، من أبرزها في هذا المقام[٣]:

١- الفطرة السليمة التي تتجه للإيمان بالله وحده.

٢- الإدراك الواعي بما وهبه الله من عقلٍ.

٣- الإرادة الحرة في اختيار طريق الخير والشر.

٤- المسئولية باعتبارها نتيجة للإرادة والقدرة.

وقد عرض القرآن الكريم للإنسان من جوانب كثيرة متعددة الأبعاد، ولعل الإنسان هو أبرز محور للموضوعات التي جاءت في القرآن الكريم؛ ذلك أن الإنسان هو محور الوجود ومركزه بعلاقاته المتعددة التي تتشكل بـ: علاقة الإنسان بالله- علاقة الإنسان بأخيه الإنسان- علاقة الإنسان بنفسه- علاقة الإنسان بالكون أو الطبيعة.

أمَّا علاقة الإنسان بالله فهي علاقة عبودية، فلا يحب الإنسان محبة كاملة تفضي إلى الطاعة الكاملة إلا إذا شهد الكمال في المحبوب، ولذلك اشتمل مفهوم العبادة في التربية الإسلامية على ثلاثة مظاهر: مظهر شعائري، ومظهر اجتماعي، ومظهر كوني.

وعلاقة الإنسان بالكون هي علاقة تسخير، والتسخير هو تطبيق المظهر الكوني للعبادة ... وتمكين الإنسان من استخدام مظاهر الكون في تطبيقات عملية نافعة للإنسان في مجالات حياته المختلفة[٤]، وتتلخص أهداف التسخير في ثلاثة أهداف[٥]:

(١)- الكيلاني، ماجد عرسان، **فلسفة التربية الإسلامية**، (جدة: دار المنارة، ط١، ١٩٨٧) ص٤٢٥.

(٢)- كرزون، أنس أحمد، **منهج الإسلام في تزكية النفس**، (بيروت: دار ابن حزم، دط، ٢٠١٢)، ج١، ص٢٠.

(٣)- المرجع نفسه، ص: ٢٠، ٢١.

(٤)- الكيلاني، ماجد عرسان، **فلسفة التربية الإسلامية**، ص١٢٤.

(٥)- المرجع نفسه، ص: ١٢٥- ١٢٨.

الأول: هدف معرفي؛ غايته استيقان إنسان التربية الإسلامية بما تخبر به آيات القرآن في صنع الخلق؛ مما يفضي إلى إيقان هذا الإنسان بعلم الله المطلق وقدرته.

الثاني: هدف إنساني ثمرته استمرار بقاء النوع البشري، والتمتع بنعم الله وشهود نعمه وسعة رحمته.

الثالث: هدف اجتماعي، وهو أن يرسخ إنسان التربية الإسلامية في فهم قوانين النفس والاجتماع.

أمَّا علاقة الإنسان بالإنسان فهي علاقة عدل وإحسان: والإحسان هو التفضل والزيادة في المعاملة الحسنة، وهذه العلاقة هي التطبيق العملي "للمظهر الاجتماعي" لعلاقة العبودية؛ أي علاقة الإنسان بالله[(١)]، كما جاء القرآن الكريم بفكر الإرادة وإرادة الفكر، وجاء في الفكر والحرية على منهاج يقوم على التواصل أو التكامل العضوي، كما أنه كشف عن أهم الأخطار أو الآفات التي تهدد الفكر والحرية، وقد عالجها وهي أربع آفات: عبودية الشهوات- عبودية السلف- عبودية القوة- عبودية المادة[(٢)].

وفلسفة الإنسان في الإسلام قائمة على أنه موجود وفق بعدين، ويجب أن يكون له دين وفق بعدين أيضًا حتى يتمكن من تغذية كلا البعدين المتضادين، تغذية المجتمع الإنساني وروح الإنسان، وحتى يتمكن من العيش بسعادة بشكل متوازن ومتعادل. يقول "عبد المجيد النجار": "... وحينما يكون المقصود بالإنسان هو الإنسان المطلق، فإن هذه الحقيقة تكون متعلقة بكل أفراد الإنسان، فما من فردٍ إنساني إلا وهو مخلوق لأجل أن يسعد وينعم. وحينما يستقر هذا المعنى العقدي في ذهن المؤمن به، فإنه يرتبط عند الإنسان في أصل وجوده بسبب ذلك الوجود وهو سعادته، فإذا هو سعى بهذا الدافع العقدي لأن يربط في الواقع بين الإنسان وبين السعادة بالعمل التلقائي، جلب ما به تكون السعادة ودفع ما به يكون الشقاء، ويستقر هذا المعنى في النفس حتى يصبح في مجموعة المسلمين نزوعًا راسخًا

(١)- الكيلاني، ماجد عرسان، **فلسفة التربية الإسلامية**، ص١٤٣.

(٢)- موسى، فرح، **الإنسان والحضارة في القرآن الكريم**، (بيروت: دار الهادي، ط١: ٢٠٠٣) ص٢٧.

إلى إسعاد الإنسانية متمثلة في كل فرد منها بالسعي في إنقاذها من عوامل البؤس المادية والمعنوية..."[١].

وتتسم الرؤية الإسلامية للطبيعة الإنسانية بالانفتاح على العملية التربوية انطلاقًا من مفهوم الفطرة، والدين مبدأ ضروري من مبادئ الفطرة التي تقف عليها الحقيقة الإنسانية، والإنسان بفطرته يحتاج إلى إشباع حاجاته وغرائزه المختلفة.

أما تناول الإسلام للطبيعة الإنسانية في تكوينها فهو تناول شامل لكل جوانب هذه الطبيعة تناولًا محيطًا بخفاياها وطاقاتها وحتى تناقضاتها؛ وفق مبدأ الاستخلاف الذي هو مناط الوجود الإنساني في الأرض؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٥]، فالإنسان مخلوق تصدر عنه الأفعال السيئة كما تصدر عنه الأفعال السيئة. والمعروف في علم النفس أن السلوك مبعثه الحاجة، فالحاجة تعني حدوث خلل في التوازن والاستقرار داخل كيان الإنسان، مما يدفعه عن طريق السلوك إلى محاولة إعادة التوازن والاستقرار، فالجائع يظل قلقًا نشطًا حتى يشبع، والمهدد بالخطر يظل قلقًا باحثًا عن الأمن حتى يضمن الحياة[٢]. وهو يجمع بين نوازع الخير ونوازع الشر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢] فالأمشاج هي النوازع التي تعني نوازع الخير ونوازع الشر كافة، وهي التي تؤدي للاتجاهات المتباينة والأغراض المختلفة.

(١)- النجار، عبد المجيد، **فقه التحضر**، ص٨٦.

(٢)- الزين، سميح عاطف، **الإسلام وثقافة الإنسان**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط٤، ١٩٧٣) ص٩.

خاتمة

يتناول الإسلام طبيعة التكوين الإنساني تناولًا شاملًا لكل جوانب هذه الطبيعة محيطًا بخفاياها وتناقضاتها، وفلسفة الإنسان في الإسلام قائمة على أنه موجود وفق بعدين (مادي ومعنوي)، تبعًا لذلك وجب أن يكون له دين وفق بعدين (مثالي وواقعي) حتى يتمكن من تغذية كلا البعدين المتضادين (تغذية المجتمع الإنساني وروح الإنسان)، كما يتمكن من العيش بسعادة بشكل متوازن. ولو تأملنا النصوص فإننا نجدها تعرض لموضوع الإنسان من جوانب كثيرة متعددة الأبعاد، ولعل الإنسان هو أبرز محور للموضوعات التي جاءت في القرآن الكريم؛ ذلك أن الإنسان هو محور الوجود ومركزه بعلاقاته المتعددة؛ بذاته وبالكون من حوله وبنظيره في خلقه، وبخالقه. وهذا البحث -الذي تعرضنا فيه لمكونات الطبيعة الإنسانية وتأصيلها في التصور الإسلامي- مكننا من الوصول إلى النتائج التالية:

- قسَّم القرآن الكريم الطبيعة الإنسانية إلى قسمين: جسم وروح، أو مادة وغير مادة، والروح تشمل العقل؛ أي أن أجزاء الطبيعة الإنسانية ثلاثة: الجسم، العقل، القلب. أجزاء متكاملة في خدمة غرض الاستخلاف الإنساني، فالعقل معرفة وعلم وإدراك، والقلب رغبة وإرادة، والجسم قدرة وتنفيذ. وأنه جمع من القوى بين الطين والنفخة الإلهية، وأن الخير سابق في تكوين الإنسان والشر عارض عليه.

- والإنسان بهذا التقسيم يشكِّل وحدة متصلة الأطراف، يخدم كل جانب فيها الجوانب الأخرى ويصحح لها، وهكذا فكل ما يصدر عن الذات الإنسانية فهو يصدر بشكل متصل. وتناول الإسلام للطبيعة الإنسانية في تكوينها هو تناول شامل لكل جوانب هذه الطبيعة؛ تناولًا محيطًا بخفاياها وطاقاتها وحتى تناقضاتها.

- وما دام للإنسان قدرة على الترجيح والحكم على الأشياء فهو كائن مكلف، والتكليف يقتضي أن يكون الأصل في الإنسان الخير، أما الشر فهو عارض على طبيعته، وانحداره إلى الشر راجع إلى قابليته للاختيار، فهو ليس خيرًا مطلقًا وليس شرًّا مطلقًا، والمسافة بينهما هي مسافة العمل التربوي.

– وتعتبر كل الانفعالات دوافع لاختيار السلوك تشترك مع الغرائز في تحديد سلوك النفس البشرية، فهي امتداد لها وجزء منها، إلا أن الانفعالات تصطبغ بالصبغة الوجدانية التي يشعر بها الإنسان، والتي تدور حول اللذة والألم. فالإنسان يتألف من شهوات أو غرائز وانفعالات وشعور، كما يتألف من بنيةٍ داخلية تراوح اسمها بين (القلب) و(الضمير)، والضمير يرتبط بالسلوك ارتباطًا وظيفيًّا.

– والضمير الإنساني غير معصوم في الإسلام، اعتبارًا بالفروق العقلية بين البشر، وكذلك في درجات الشعور التي تتفاقم عند البعض وتنتفي عند الآخرين، ولذلك نحى كثير من علماء المسلمين إلى تقسيم النفس إلى: النفس اللوامة، والنفس الأمارة، والنفس المطمئنة والنفس المستنيرة.

– إن الإنسان بملكة العقل والإرادة يتحرك في دائرة إرادته، ودائرة إرادته هي دائرة صغرى ضمن دائرة الإرادة الإلهية التي جعلته في مجال يعبر فيه عن منشئه الأصلي، الذي يُعزى إلى العمارة والاستخلاف، وبذلك يصبح كائنًا فعالًا إيجابيًّا يجري وفق نواميس كونية مستمرة، عن قصدٍ وغايةٍ. والعقل مادة التشريف، والنفخة الروحية مادة التكريم، ومظاهر التكريم في التكوين المعنوي للإنسان أعظم منها في تكوينه المادي؛ إذ هو مشتمل على نفخة من روح الله، إنه نفخ مجهول الماهية، ولكن يدل على عنصر تكويني في الإنسان زائد على العنصر المادي، هو عظيم القيمة رفيع الشأن، فالتسوية الإلهية للإنسان ونفخ الروح فيه هي التي شرفت هذا المخلوق وجعلته كائنًا عظيمًا مكرمًا، وهذا التكريم يرجع إلى نفخ الروح فيه وما تبعه من عقلٍ وفكرٍ.

– إنَّ كل معنى في الحياة يترتب على ما نعطيه من معاني للأشياء من حولنا؛ معنى للكرامة الإنسانية التي تتحدد بشكل أساسي في تهذيب الغرائز وتوجيهها في سياقاتها المتجانسة مع العيش الكريم، والعيش الكريم هو تلك الحياة التي يرتفع فيها الوجدان الإنساني عن مظاهر القلق والتوتر والإحباطات والخوف واليأس، ومحاولة بناء نسق مجموع من بوادر السعادة التي يتحقق فيها معنى الإنسان من حيث هو كائن إيجابي.

وبعد استكمال جهد هذه الدراسة واستفراغ وسعها؛ فإننا نقترح تتبع آفاق أخرى تتعلق ببحث الجانب الوجداني في الإنسان؛ لما له من صلة بالجانب الإيماني وشروطه النفسية، ومتعلقاته الجسدية، حيث إن استكمال البحث بطرح مقاربة تجمع بين الوجود الطبيعي وطبيعة الخلق، وبين التصور الإيماني ومتعلقات التهذيب الروحي، يمكن أن يوسع مدارك النظر في أسرار تعبيد الإنسان لله عز وجل.

وصلى الله وسلم على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية حفص.**
- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، دط، دت.
- البهي، مُحَمَّد (١٩٧٥)، **الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر**، (الطبعة الثانية) بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- البوطي، مُحَمَّد سعيد رمضان (١٩٨٣)، **الإنسان وعدالة الله في الأرض**، (الطبعة الخامسة) دمشق: مؤسسة الرسالة.
- الإدريسي، مُحَمَّد العدلوني (٢٠٠٢م)، **معجم مصطلحات التصوف الفلسفي (مصطلحات التصوف كما تداولها خاصة المتأخرين من صوفية الغرب الإسلامي)**، (الطبعة الأولى) الدار البيضاء: دار الثقافة.
- إسماعيل، سعيد (١٩٧٤)، **ديمقراطية التربية الإسلامية**، (دط)، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر.
- الجرجاني، علي بن مُحَمَّد بن علي الزين الشريف، (١٩٨٣)، **التعريفات**، (الطبعة الأولى) بيروت: دار الكتب العلمية.
- الزين، سميح عاطف (١٩٧٣)، **الإسلام وثقافة الإنسان**، (الطبعة الرابعة)، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الزين، سميح عاطف (١٩٩١)، **علم النفس (معرفة النفس الإنسانية)**، (دط)، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- صليبا، جميل (١٩٢٨)، **المعجم الفلسفي**، (دط) بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الطويل، عزت عبد العظيم (١٩٩٩)، **معالم علم النفس المعاصر**، (الطبعة الثالثة)، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- عبد الحميد، محسن (١٩٩٦)، **تجديد الفكر الإسلامي**، (الطبعة الأولى)، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- عبد الرحمن، طه (٢٠١٣)، **روح الدين (من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية)**، (الطبعة الثالثة)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
- عبد الرحمن، عائشة (١٩٦٩)، **مقال في الإنسان**، (دط)، القاهرة: دار المعارف.
- العقاد، عباس محمود، (١٩٧٤)، **الفلسفة القرآنية**، (دط)، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- الغزالي، أحمد بن مُحَمَّد أبو حامد (١٩٩٨)، **إحياء علوم الدين**، تحقيق: عبد الله الخالدي، (الطبعة الأولى)، بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم.
- قطب، سيد (١٤١٢هـ)، **في ظلال القرآن**، (الطبعة السابعة) القاهرة: دار الشروق.
- قطب، مُحَمَّد (١٩٨١)، **دراسات في النفس الإنسانية**، (الطبعة الخامسة) القاهرة: دار الشروق.
- قنديل، أمين مرسي (١٩٧٢)، **أصول علم النفس**، (الطبعة الثانية)، القاهرة: المطبعة المغربية.
- الكيلاني، ماجد عرسان (١٩٩٧)، **أهداف التربية الإسلامية، (في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية)**، (الطبعة الثانية) فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- كرزون، أنس أحمد (٢٠١٢)، **منهج الإسلام في تزكية النفس**، (دط)، بيروت: دار ابن حزم.
- الكيلاني، ماجد عرسان (١٩٨٧)، **فلسفة التربية الإسلامية**، (الطبعة الأولى)، جدة: دار المنارة.

- مبارك حسن حسين (١٩٨٢)، **تأملات في فلسفة الأخلاق والتصوف**، (دط)، الرياض: مكتبة الرياض للطباعة.
- محمود، أميرة، (٢٠١٤)، **الغريزة ما لها وما عليها من منظور إسلامي**، دط، مصر: دار شتات للنشر.
- موسى، فرح (٢٠٠٣)، **الإنسان والحضارة في القرآن الكريم**، (الطبعة الأولى)، بيروت: دار الهادي.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة (١٩٩٢)، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، (الطبعة الثالثة)، دمشق: دار القلم.
- النجار، عبد المجيد، (١٩٩٩)، **فقه التحضر**، (الطبعة الأولى)، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- يالجن، مقداد (١٩٨٦)، **جوانب التربية الإسلامية الأساسية**، (الطبعة الأولى)، الرياض: موسوعة التربية الإسلامية.
- يالجن، مقداد (١٩٧٢)، **الاتجاه الأخلاقي في الإسلام (دراسة مقارنة)**، (الطبعة الأولى)، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- يوسف القرضاوي (١٩٧٧)، **الإيمان والحياة**، (الطبعة الخامسة)، القاهرة: مكتبة وهبة.